المقتطف

الجزء التاسع من السنة الثالثة عشرة

١ حزيران (يونيو) سنة ١٨٨٩ = ٢ شوال سنة ١٣٠٦

الغنى والفقر

واحسنُ شيء في الورى وجه محسنٍ وايمن كفٍّ فيهم كفُّ منعمِ
واشرفهم مَن كان اشرف همّةً واعظم إقدامًا على كل معظمِ

ضمنًا وبعض الادباء مجلس انس سُلافة الافكار صهباؤُه ودار الحديث على المسابقة الادبيّة وشرائطها وفوائدها وكان من رأينا انها تقوّي القوي وتغني الغنيّ ولا تضعف الضعيف ولا تُفقر الفقير ما دام الانسان حرًّا ليتمتّع بنتائج اعماله خلافًا لما يظنهُ الذين اذا رأَوا ان رصيفهم بارعهم في اعمالهم هلعت قلوبهم خوفًا على بضاعتهم من الكساد واستعاضوا بعرقبتهِ عن مسابقتهِ . ولما كان الموضوع واسع الاطراف يهمُّ الجمّ الغفير من قرّائنا الكرام رأَينا ان نلمّ ببعض مسائلهِ في هذه المقالة الوجيزة فنقول

الشائع ان الغنى والفقر نقيضان فاذا اغتنى رجل افتقر بغناهُ رجل او رجال وقد جاهر بهذا القول بعض علماء الاقتصاد السياسي وعندهم ان ما نراهُ الآن من غنى البيوتات الكبيرة كبيت روشيلد وبيت قندربلت قد اوجب خراب بيوت كثيرة وطرح كثيرين من البشر على حضيض الفقر والمسكنة . وهذا القول مبنيٌّ على قضيّة غير مسلمة ولا مبرهنة وهي ان الغنى الموجود الآن في الدنيا شيء محدود لا يزيد ولا ينقص فاذا قبض عليهِ زيد خرج عمرو منهُ صفر اليدين . نعم قد كان ذلك كذلك في الايام الاول لما كانت ثروة المالك بالغزو والنهب لا بالاحتراف والاكتساب ففي ايام

الامبراطورية الرومانية كانت ثروة رومية عمّا بأتيها من غنائم الامم التي تقهرها فكان الامير والوزير والوجيه يأخذون الجانب الاكبر من هذه الغنائم فيغتنون بها فيبقى لغيرهم صغرًا منها ولكن لما تقوّضت اركان الامبراطورية الرومانية وسعت مدن ايطاليا وراء الاتّجار والاكتساب جمع تجار البندقية مثلًا ثروةً طائلة وهذه الثروة لم يجمعوها من صعاليك البندقية ولا احرموهم اياها لان ابواب الاكتساب كانت مفتوحة للجميع على حدٍّ سوى وانما جمعوها من خيرات الارض ومعادنها وقصّر الصعاليك عن تجاراتهم لقلة إقدامهم وضعف همهم . وقس على ذلك جميع الممالك الشرقية والغربية التي كانت تعتمد على الغزو والنهب ثم دالت حالها وعدلت عن خطتها الى خطّة الاحتراف والاكتساب . فالغنى الذي نراهُ اليوم في فرنسا وانكلترا واميركا ليس دليلًا على كثرة الفقراء فيها لان الفقراء قد يقلُّ عددهم وتحسن حالهم بازدياد ثروة الاغنياء

وبين الغنى والفقر علاقة شديدة ولكن ليس في ان غنى البعض هو علة فقر البعض الآخر بل في ان فقر البعض هو علّة غنى البعض الآخر اي ان الفقر قد يكون علة الغنى ولا يُعكس لان الذين يفتقرون لكسلهم او اهمالهم او اسرافهم تذهب اموالهم وانعامهم الى المجتهدين المقتصدين ويصير الفقراء خدّامًا للاغنياء بارخص الاجور

والناس غير متساوين في قواهم الطبيعيّة بل هم مختلفون فيها اختلافًا بيّنًا وبينهم درجات شتى فاذا اتيح لهم السعي على حدٍّ سوى سبق البعض وقصّر البعض وتوسّط الباقون بين الطرفين حتى قلما يتساوى اثنان منهم ولقد احسن ابو الطيب اذ قال

على قدر اهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكرام المكارمُ
وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائمُ

ولا شيء يزيد التفاوت بين الناس مثل الحرية والامن فان القوى متفاوتة طبعًا واطلاق العنان لها يزيد القويّ منها قوّة . وبقولنا ذلك لا نعلّق النجاح كلهُ على السعي والاجتهاد وان كان للسعي والاجتهاد يد قوية في النجاح لان بين الناس تفاوتًا عظيمًا في الاستعداد الفطري من حيث الوراثة الجسدية والعقلية وفي وسائط التربية والتهذيب والمال الموروث والبلد والبقعة والفرص وكل هذه الاسباب تسهل النجاح او تعيقهُ فتزيد التفاوت بين الناس

واذا لم يُتح للناس السعي على حدٍّ سوى بل وُسّع للغني والوجيه وضُيّق على الفقير والحقير انقسموا الى فئتين فئة مسودة وفئة سائدة اي الى سوقة واعيان ولا يضاح ذلك

لنفرض اننا دخلنا بلادًا صغيرة متمتعة بالحرية التامة يسعى اهاليها جهدهم فيحصلون ما يحصلون على حسب فهمهم ومداركهم فاننا نرى بينهم الرفيع والوضيع والمتوسط بينهما على درجات شتى حتى لا يكاد يوجد اثنان من اهاليها متساويان في اموالهم ومكاسبهم . ثم ليقدّر الله لتلك البلاد ملكًا ظالمًا غشومًا يضرب المغارم والمظالم على اهاليها فيحمل الاغنياء ذلك لانساع ثروتهم والفقراء لانهُ ليس عندهم فضلة لتؤخذ منهم ويقع الحمل الثقيل على الاواسط واذا طال زمان الجور والاعتساف انحط الاواسط الى منزلة الفقراء واصبح الاهلون قسمين فقط اغنيا وسوقة او رؤساء ومرؤسين . ترى ان ذلك كان شائعًا في اكثر الممالك القديمة ولبث في المملكة الروسية الى عهد غير بعيد

قال ممسن في تاريخ المملكة الرومانية ان مظالم الحكومة قسمت الناس الى قسمين دائنين ومديونين فالدائنون زادت ثروتهم رويدًا رويدًا فابتاعوا العبيد واستخدموهم في فلاحة ارضهم وقضاء اعمالهم ولم يلبث المديونون ان صاروا لهم عبيدًا . وزاد الابتعاد بين الاعيان والسوقة باتساع الغزوات ووفرة الغنائم ولذلك دخل المملكة الفساد ولم تدُم صولتها وانتشر العيث قرونًا عديدة وتاريخ القرون الوسطى اكبر شاهد . ولما دخل اليونان والرومان القطر المصري بعد ايام الاسكندر ادخلوا هذا الفساد فيهِ فاستحكم من ايام البطالسة الى ان تولتهُ العائلة الخديوية فذهب بجميع السالف وابقى معالمهُ آثارًا دارسة وما احسن ما قالهُ صاحب السعادة علي باشا مبارك في الكلام على الملك الناصر محمد بن قلاون قال كانت الارض على عهدهِ مقسومة الى اربعة وعشرين قيراطًا يختص منها السلطان باربعة قراريط والاجناد بعشرة والامراء بعشرة وكان الامراء يأخذون كثيرًا من اقطاعات الاجناد فلا يصل الى الاجناد منها شيء بل تصير في دواوين الامراء ويحتمي بها قطّاع الطريق وتثور بها الفتن وتصير ماكنة لاعوان الامراء ومستخدميهم

وقال في الكلام على هذه الديار في ايام الساجق " كان كل حاكم بليها كأنهُ وليها لاستعباد اهلها وقتلهم وسلب اموالهم وتخريب ما بها من العمائر والآثار فكان الواحد منهم لا يترك الضرائب الفاحشة ولا القتل والسلب ... وكانت القاهرة مركزًا للتجاريد العسكرية ان لم تكن ميدانًا للقتال "

ثم ذكر العوائد التي كانت مفروضة على القطر المصري لما وطئهُ الفرنسويون وهي مال الحماية ومال التقدمة وعادة المشايخ والحلوان وعادة الصرّاف وعادة المشد وعادة سقاء دار الوسية والخدمة وعادة المساحة وعادة الكشوفية ومال الجهات وخدمة السفر

وعادة اوراق الشتوي والصيفي ومطالب حاكم الجاويشيّة ومصاريف الناحية ورفع المظالم والتسويف المقرّر وعادة رأس نوبة وعادة مسواده وعادة خدم الرملة وعادة البازجي وعادة نبن السلطان وعادة حوالة الحوالات وعادة غفر المال وعادة الجسور السلطانيّة وعادة الجرافة السلطانيّة وعادة شيخ الجرافة وعادة صغار الجرافة وعادة معلمي الجسور وعادة نائب الربية . فلا عجب اذا خربت البلاد وفسدت احوال العباد بهذه العوائد الفاحشة واصبح عيشًا لنفر من الرؤساء وفسدت احوال هؤلاء وانغمسوا في الشهوات والمفاسد لانهم يربون على مال الظلم

وكل مملكة فيها فئتان من الناس فقط لا متوسط بينها فهي عادلة عن طريق العدل وغائصة في بحار الجور والاعتساف وكل مملكة كثر المتوسطون فيها وتفاوتت درجاتهم فهي حاكمة بالقسط بين رعاياها ومتيحة لكل احد ان يتقدّم بقدر ما اعطاهُ الله من القوى الطبيعيّة

وهنا نرى فساد تعاليم الاشتراكيين الذين يريدون ان يساووا بين الناس في الثروة زعمًا بان ذلك هو القسط والانصاف . فان مَن تدبّر ما قدّمناهُ يرى ان مبادئهم هي عين الجور والاعتساف اذ يُقصَد بها ان يُضغَط على اصحاب العقول الكبيرة والقوى العظيمة لكي لا يستعملوا عقولهم ولا قواهم ويُسند كل كسلان مسرف بمال المجتهدين المقتصدين لكي يبذرهُ باسرع ما يكون . ولكنّ اهل الحضارة الحاليّة يعلمون فساد هذه المبادىء فلا ينقادون اليها

والناس بحسب الحضارة الحاليّة التي نشرت لواء العدل والانصاف يتقدمون جميعًا بما قد قوي فيهم من الميل الى المباراة . وكل فرد كملت فيهِ صفات الانسانيّة تراهُ في يومٍ ارقى منهُ في امسهِ . ولا تخلو البلاد من افراد قلائل خلقوا ليكونوا عالةً على غيرهم وهؤلاء سينقرض نسلهم بانتشار نظام المباراة الطبيعي او ينقطعون عن الاعتماد على غيرهم الى الاعتماد على انفسهم ولاسيما حينما يبطل الناس اسلوب التصدّق الحالي ويقتصرون على مساعدة مَن بهم عاهات طبيعيّة تمنعهم عن الاحتراف والكسب

وخلاصة ما تقدّم ان الممالك التي تعتمد على الغزو والنهب يقسم شعبها الى فئتين فئة الاغنياء وفئة الفقراء وكذا الممالك التي تظلم رعاياها ولا تعاملهم بالانصاف . وان الممالك التي تنشر لواء العدل بين رعاياها وتتيح لكل منهم ان يتقدّم بحسب ماله من القوى الطبيعيّة يتفاوت شعبها على درجات شتى ولكنهم يتقدمون رفيعهم ووضيعهم ويحسن

حالم عالمًا بعد آخر

فالبراءة شرط لازم للتقدُّم مثل العدل والذين يخافون منها ويغيون العثرات في طريقها من اضلِّ الناس سبيلاً

عناصر الاجسام

اتينا من المكتبة الخديوية بعد ان اطّلعنا فيها على رسالتين لشيخ كيماريي العرب جابر بن حيان الطوسي . ومَن طالع هاتين الرسالتين وكل كتب الكيمياء الى ايام لافوازيه العالم الفرنسوي رأى فضل لافوازيه واعترف له بانهُ ابو الكيمياء الحديثة وانهُ قد حوّل الكيمياء من الطلاسم والالغاز الى علم بقواعد واصول

ولما دخل العرب ديوان العلوم رأوا ان فلاسفة اليونان قد طرقوا علم الكيمياء وقالوا ان العناصر اربعة النار والهواء والماء والتراب فتابعوهم والى ذلك اشار الشيخ الرئيس ابن سينا في ارجوزتهِ الطبية حيث قال

اما الطبيعيات فالاركان تقوم من مزاجها الابدانُ
وقولُ بقراط بهـا صحيحُ غازٌ ونارٌ وثرًى وريحُ

واول من اذاع هذا القول ارسطو الفيلسوف اليوناني مع انهُ قديم يمكن اقتفاؤهُ الى ايام اميدقليس الذي كان قبل ارسطو بنحو مئة سنة وتابعهُ فيهِ العلماء الى آخر القرن الماضي اي انهُ بقي ذائعًا متبوعًا اكثر من اثنين وعشرين قرنًا على ما فيهِ من الفساد الظاهر

وكان اعتماد ارسطو في جعل العناصر اربعة على بعض الاوصاف وما بينها من الطباق كالمفرد والجمع والشفع والوتر والايمن والايسر والذكر والانثى والحركة والسكون والمستقيم والمحني والنور والظلمة والخير والشر والمربع والمستطيل ومن هذه المتناقضات استدلَّ ان العناصر اربعة . قال في صدد ذلك انا باحثون عن اصول الاشياء المحسوسة اي الاجسام الملموسة ولذلك لا نلتفت الى كل الاوصاف المتناقضة بل الى ما يتعلق منها باللمس فالابيض والاسود والحلو والمرّ لا تختلف كصفات ملموسة ولذلك لا نلتفت اليها واما الصفات المتناقضة التي نشعر بها باللمس فهي الحار والبارد واليابس والرطب والثقيل والخفيف والصلب واللين والسميك والمحدِّث والخشن والناعم والكثيف واللطيف . ثم اخرج